الهنود البيض

اكتشافهم — غرائب عاداتهم — اصلهم

كان المستر مارش احد المهندسين الاميركيين يبحث في ادغال ولاية دارين يشرق بناما عن اشجار المطاط فعثر على قبيلة من الهنود بيض البشرة شقر الشعور شهل العيون لهم نظام سياسي بديع وتقاليد ادبية خلقية راقية جدًّا فعاد بثلاثة منهم الى اميركا ليبحث العلماء في امرهم بعد ان تكبَّد في سبيل ذلك اكبر المشاق وعرّض نفسهُ لمخاطر كبيرة. وقد اطلعنا على مقالتين لهُ في هؤلاء الهنود البيض وكيف عثر عليهم وما يقولهُ العلماء في تعليل اصلهم ونشأتهم فرأينا ان نثبت خلاصتهما فيما يلي . قال :

فتاة من الهنود البيض

كنت اتجول منذ سنتين في ادغال دارين فوصلت الى مقاطعة من مقاطعات الحدود وفيها كنت اساوم احد مشايخ القبائل على استئجار بحّارة لقلعي في نهر الشوكوناك بصرت بثلاث فتيات هنديّات بيض مرون وراء كوخ ثم قطعن الطريق وخلفن وراءه كوخ آخر . فشعرت حينئذٍ كما يشعر كيماوي لو كان يذيب رصاصًا فرأى الرصاص فجأة قد تحوّل ذهبًا لاني تحققت في تلك اللحظة صحة خرافة اميركية قديمة تقول بوجود الهنود البيض

في اخبار كولمبوس انهُ رأى هؤلاء الهنود وقد قال كورتز انهُ رأى مائة منهم اسرى

في سجن الملك موتتيزوما بمدينة المكسيك والناس يؤدون لهم الاحترام لانهم « ابناء الشمس » ويقال ان بعض المكتشفين كفانكوفر وستايلز الاميركي وهمبولت رأوهم ايضاً في انحاء مختلفة من اميركا الشمالية والجنوبية

اما انا فلم اكن اصدق ما قيل عنهم وحسبت ان ما ذكره هؤلاء المكتشفون سببهُ وهم بصري لكن الفتيات اللواتي رايتهن اقنعني بصحة ما يقال عن الهنود البيض

سألت شيخ القرية عنهن فقال لي انهن يقطنَّ كوخاً خارج البلد مع رجل مثلهن ولا يتزوجون مع سكان قريتنا ولا احد يجرؤ على معارضتهم خوفاً من غضب قبيلتهم . وقبيلتهم تقطن ادغالاً في اعالي نهر الشوكوناك ومحظور على الزنوج وسائر الهنود حتى وعلى البيض ايضاً الدخول الى بلادهم . وكانت حكومة بنما قد ارسلت فصيلة من الجنود للدخول الى بلادهم فابادوها وهم كثير العدد ومتحالفون مع القبائل المتوحشة التي في جوارهم

فشوقني هذا البيان الى زيارة البلاد التي يقطنها هؤلاء الناس فسرت في الطريق التي دأني طيها ذلك الشيخ وبعد مسير نصف ميل وصلت ومن معي من الرفاق الى عطفة في مجرى النهر فرأينا كوخاً مبنياً بسعف نوع من النخل وارضهُ تعلو بضع اقدام عن الارض يدخل اليها بسلم منحوت في جذع شجرة . وبعد ان اكثرنا النداء بالانكليزية تارة وبالاسبانيولية اخرى ظهرت الفتيات الثلاث فحاولنا ان نعرب لهن بالاشارات عن حسن نيتنا فالفحنا بعد مشقة ولما اقتربن منا اعطينا كلاً منهن حفنة من النقود الاميركية من فئة عشرين سنتاً فسحبن لنا ان ننظر في شعورهن وبشرتهن فتأكدنا ان الشعر ليس مصبوغاً ولا البشرة مطلية بطلاء ما . اما عيونهن فلم تكن سوداء بخلاف عيون الهنود ولكنها لم تكن عيون الالبينو (البرص) وهن لا يشكلن الانكليزية ولا الاسبانيولية

وفي اليوم الثاني مررنا في النهر فوصلنا قرب الظهيرة الى ارض ظهر لي انها كثيراً من اشجار الكاوتشوك وفي القصد بالذات من هذه الرحلة . وفيما نحن ندور عطفة من عطفات النهر رأينا مركباً مقبلاً علينا وعلى مقدمهِ رجل عار ابيض الجسم اشقر الشعر ربعة القوام مجدول عضل الصدر والذراعين . وكان واقفاً وقفة ملك جبار ووراءهُ فتاة في العاشرة من عمرها وصبي في الرابعة وفي مؤخر المركب امرأة تدير الدفة بحذاقة . وحينما مرَّ المركب امامنا نظر الينا الرجل من غير ان يحوّل رأسهُ نظرة ملؤها الكبر والانفة فكأنهُ يريد ان يقول انا ملك هنا فماذا تفعلون في بلادي . وكنا قد سمعنا كثيراً عن فظائع هؤلاء الرؤساء فعزمنا للحال ان نرجع من حيث اتينا

وعاد المستر مارش الى اميركا فاقنع بعض الجامعات والاندية العلمية باهمية الاكتشاف فالّف بعثة من العلماء واهتمت الحكومة الاميركية وحكومة جمهورية بناما فامدوه بالرجال ووضعت الحكومة الاميركية طيارتين تحت تصرفه استعملهما في استكشاف تلك المجاهل قبل ارتيادها وتصوير بعض مناظرها من الجو ويقول انهُ استكشف في يوم واحد بالطيارة ما تقضي اربعة اشهر في ارتياده بعدئذٍ

وبعد ان تكبدت البعثة مشاق كثيرة ومات اثنان من رفاقها علمت ان جميع القبائل في دارين خاضعة لرئيس واحد يدعى في لغتهم « اينا ياغينا » وهو من سلالة عريقة في القدم حكمت تلك البلاد قروناً كثيرة. وكان مركز حكومته في ساسارديعلى شاطئ سان بلاس . وهنا ندع المستر مارش يستأنف كلامهُ قال فارسلت الى هذا الرئيس اطلب مقابلتهُ فسمح بذلك وبعد ان تحادثنا طويلاً بواسطة ترجمان اقنعتهُ بسلامة نيتنا في زيارة بلادهم وطلبت اليهِ ان يرينا الهنود البيض فانكر وجودهم اولاً وبعد ما اثبتُّ لهُ اني عارف بوجودهم وانهُ اذا عرف الاميركيون ان الهنود البيض يمتّون اليهم بصلة ازداد اهتمامهم بقبائلهم سمح لي برؤيتهم فرأيت نحو اربعمائة منهم زرافات زرافات وحادثتهم بواسطة مترجمين وصوّرتهم صوراً متفرقة بالفوتوغراف وعلى شريط سينماتوغرافي وفحصتهم فحصاً مدققاً حتى تأكدت انهم لا يستعملون اصباغاً ولا طلاء للظهور بهذا المظهر الغريب وبحثت كثيراً في عاداتهم واخلاقهم ونشأتهم

وهم مثل كل الهنود الذين يقطنون شواطئ سان بلاس (في جمهورية بناما على شاطئ الاتلانتيكي) اذكياء العقول اقوياء الاخلاق شديدو المراس يفوقون كل الهنود الذين شاهدتهم في اميركا الشمالية والجنوبية ذكاء واخلاقاً ولا استثني قبائل البويبلوس. واذا لم يكن لدى هؤلاء الهنود البيض من التقاليد الراقية سوى عنايتهم بالنساء والاولاد واحترامهم لهم لكفاهم ذلك فخراً

لم ارَ امرأة بينهم عابسة الوجه متقطبة الجبين فالرجال يدعون نساءهم « ازهاراً » ومعاملتهم لهن تساوي في لطفها وتبلها مع هذا الخاطر الشعري البديع

اقنعت في احد الايام شيخاً من شيوخهم بالوقوف امام آلة التصوير لكي اصوره فأمر على انتظار حفيدته لكي يتصوّر معها

والظاهر ان للهنود البيض مقاماً حربياً عظيماً بين سائر القبائل هناك فالجميع يحاذرون صولتهم لانهم يحرصون على استقلالهم حرصاً شديداً ويذودون عنهُ بكل قواهم

وقبائل الهنود البيض مثل قبائل سان بلاس السمر تحرص على الاحتفاظ بنقاوة سلالتها فإذا تزوج هندي ابيض بهندية سمراء او تزوجت هندية بيضاء بهندي اسمر كان لاولاد بين بين وكان احفادهم بيضاً وسمراً اي ان قاعدة مندل في الوراثة تنطبق عليهم . ومتى بلغ اولاد الجيل الثاني سن الرشد فصل الاخوان بعضهم عن بعض

نماذج من هنود سان بلاس

ورسل البيض ليعيشوا مع الهنود البيض والسمر مع هنود السمر . وهذا يعلل بقاء هنود البيض بيضاً مع انهم مكتنفون بالسمر والحمر والسمر من كل جانب.

في زيارتي الثانية لم استطع ان اعود بثلاثة منهم الى وشنطون فاهتم بهم العلماء الذين في خدمة الحكومة لانهم رأوا فيهم سبيلاً لحل بعض المسائل التاريخية الغامضة التي تحوم حول مدنيات اميركا المتوسطة . فشرعوا ولاً يدرسون لغتهم فوجدوا انها لا تشبه لغات الهنود في نصف الكرة الغربي فهنود اميركا عموماً يتكلمون لغةً يستدل من صوتها ومدلولها انها مغولية الاصل ولكن لغة لسان بلاس و هنود البيض بعة آرية ونحوها يمائل نحو لغة

السنسكريتية . والسنسكريتية هي ام اللغات الآرية التي تفرعت منها اللغات الاوربية

والهنود البيض يسمون لغتهم « تول » Tuie ويقول عنها الدكتور هاوتتون احد علماء الانثولوجيا في المعهد السمثسوني انها لغة غنائية لينة المقاطع وسبب ذلك انهُ لا يجتمع فيها حرفان صحيحان بل كل حرف صحيح يتبعهُ حرف علة . ولا تجد بين حروفها الصحيحة حروفاً حلقية يصعب التلفظ بها . اما حروف العلة فخمسة يتبعها حرفان شبيهان بحروف العلة يقابلان حرفي Y و W بالانكليزية والحروف الصحيحة ١١ حرفاً فقط

ولكل من الحروف الصحيحة لفظان قصير ومدود فتتضاعف بذلك الاصوات الاصلية التي تتألف منها الكلمات . ومن اغرب ما عرفهُ العلماء الذين يبحثون الآن في هذه اللغة وقواعدها ان لفظ النساء يختلف عن لفظ الرجال . فالصبيان يعلَّمون منذ حداثتهم لفظ الرجال والبنات لفظ النساء وحيث يقول الرجال « سكله » تقول النساء « سيله » وحيث يقول الصبي « شاپو » تقول الفتاة « تشي » . وبعد التعمق في البحث وُجدت اثنتا عشرة كلمة في لغة هؤلاء الهنود تتفق لفظاً ومعنىً مع كلمات استعملها النورس الكندناويون في القرن الحادي عشر منها كلمة « اريدي » بلغة التول ومعناها عمل وهي « اريد » باللغة النروجية ومعناها عمل كذلك وقس عليها الكلمات التي معناها اثنان ونم وموسيقى وقدم ورَمى وملوَّن وحطَّم وثمرة وقال وسرطان وقارب

كيف اتصلت هذه الالفاظ الكندناوية بلغة الهنود البيض ؟ هذا يقودنا الى الكلام على اصل هؤلاء الهنود وفي ذلك اربعة آراء

يقول اصحاب الرأي الاول ان الهنود البيض من سلالة رجال النورس . فمن الثابت ان البحارة النورس جابوا البحار بين جزيرتي ايسلندا وغرينلندا وبعض العلماء يعتقدون ان جماعات كثيرة منهم هاجرت الى اميركا وقطنتها قبل ان كشفها كولومبوس بانف سنة . فقد يصح ان بعض هؤلاء هاجروا الى غرب اميركا وصاروا على تقلب الايام اسلاف قبائل الاسكيمو الشقر الذين كشفهم الرحالة ستيفانسن منذ سنوات قليلة . وقد يكون فرع آخر منهم استأنف السفر الى الجنوب فانشأ حضارة يوكاتان في اميركا الوسطى ثم قطع برزخ بناما الى جبال الاندس فاسس حضارة الانكاس في بيرو

افلا يصح ان الهنود البيض من سلالتهم ؟ فالبحث في لغتهم يدل على شبه كبير بين اللغتين . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الهنود البيض ذواتهم يؤكدون وجود

خرائب مدن في ادغالهم كانت مبنية بالحجر وان هذه المدن بناها اسلافهم وقد نقشت عليها كتابات هيروغليفية عن تاريخهم . فاذا صحّ هذا القول فقد نجد بين الهنود البيض الآن من يستطيع قراءة هذه الكتابات والوقوف على محتوياتها ومن يعرف ما قد تكتنهُ من المعلومات التاريخية

واصحاب الرأي الثاني يقولون ان الهنود البيض صاروا كذلك بالتحول الفجائي من الهنود السمر فكثير من العلماء يعتقدون ان الجنس الابيض نشأ من الجنس الاسمر بتحول فجائي . وعندهم ان هذا التحول تمّ في عصور عريقة في القدم وقد لا يتم ثانية في المستقبل ولكن ما حدث مرة قد يحدث ثانية فان في علم النبات ادلة كثيرة على صحة هذا القول . فاذا كان هنود سان بلاس السمر فرعاً من الجنس الاسمر قد قارب نهايتهُ فمن المحتمل عملياً ان ينشأ منهُ بالتحول الفجائي هنود بيض . ومما يؤيد هذا الرأي الشبه الشديد في اللغة والعادات والمقدرة العقلية بين هنود سان بلاس السمر والهنود البيض مع ان هاتين القبيلتين تختلفان عن كل القبائل التي تجاورهما

والرأي الثالث انهم قبيلة من البرص ولكنهُ رأيٌ فيهِ مجال للمناقشة والبحث . واقوى حجة يدلي بها اصحاب هذا الرأي لتأييد رأيهم هي ان عيون الهنود البيض تتقلب كعيون البرص وسبب ذلك بعض الانفعالات العصبية في جسم الابرص تنجم عن تهيج العيون من الاشعة التي فوق البنفسجي خلوها من المادة الملونة التي تكون فيها عادة

ومن الجهة الاخرى تجد عيون الهنود البيض تحوي في شبكيتها وقزحيتها مادة ملونة تخلو منها عيون البرص . وبدلاً من ان يكون لون العيون قرنفلياً في الهنود البيض كما هي الحال في عيون البرص تجد لونها اشهل . ورغماً عن هذا التناقض المتقدم يعتقد الاستاذ داڤنبورت وهو من اكبر علماء البيولوجيا المعاصرين انهم برص مع انهُ يجد صعوبة في تعليل كثرتهم اذ لم يسبق لهُ ان عرف وجود البرص في قبيلة او جنس بهذه الكثرة

والرأي الرابع يقول بهِ الماجور كرستي الانكليزي المختص بدرس الامراض الاستوائية وهو ان هذا البياض حالة فيزيولوجية مرضية منعت عمل التلوين الطبيعي فكانت النتيجة كما ترى

ولا فرق سواء صحّ هذا الرأي او ذاك فان تفوّق هؤلاء الهنود على الهنود مجاوريهم ذكاء واخلاقاً وقانوناً ونظاماً سياسياً وما لهم من العادات الراقية والموسيقى الفريدة في بابها يجعل البحث في شأنهم ذا شأن عملي كبير